

صفحات من «سيرة ذاتية»

عن الأصل والمولد والأسرة...

الدكتور سهيل ادريس

هذه «الخدمة» لي، فقد كنت على يقين من أنه يعرف أن علاقة حب كانت تنسج خيوطها بيني... وبين ابنته.

وعلى أي حفظة لقريبي «معروفه»، وحمدته له، فقد اشتد نفوري من الزور... وعاهدت نفسي على مكافحة التزوير في كل شأن من شؤون الحياة، حتى ولو كانت الغاية من التزوير أحياناً غاية نبيلة!

والحق أن تكبير عمري لم يُعد عليّ بأي نفع.. فقد عدلت إدارة الكلية الشرعية عن إفادي الى القاهرة لدراسة الآداب، بعد أن نزعُت الحجة والعمّة...

بل إنني كنت أجد مشقةً وعسراً بإقناع الناس بأنني أصغر سنّاً مما تشهد به تذكرة هويتي، وكنت أجد من المضحك أن أعمد، كلما دعت الحاجة، الى إبراز وثيقة تصحيح العمر...

ومع الوقت، نسيت الموضوع أو تناسيته، لا سيما بعد أن تزوّجت، ووجدت زوجتي أن من نقص العقل أن تحاسبني على عامين أكثر أو عامين أقل، أي إذا كنت أكبرها بتسع سنوات أو بإحدى عشرة سنة!*

وما دام الحديث عن تذكرة الهوية، والشيء بالشيء يذكر كما يقول الناس، فإنها تثبت أن الجنسية لبناني، وأن المذهب: مُسلم سني.

ما زلت حتى اليوم، بالرغم من جميع النكسات والانشقاقات والفواجع القومية، أأمل أن يأتي اليوم الذي

(*) حين قرأت زوجتي هذه العبارة، قبل أن أدفع بهذا المقال الى المطبعة، احتجّت عليّ قائلة: «هل من الضروري أن تكشف على صفحات الجرائد حقيقة عمري؟».

وُلدت في بيروت يوم السابع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٢٥. ولكن تذكرة هويتي الحالية تقول إنني كنت من مواليد ١٩٢٣.

وتفسير هذا الاختلاف بين التاريخين وارد في سجلات المقيمين لإحصاء ١٩٣٢ بالمديرية العامة للأحوال الشخصية، وهو عبارة «صُحح تولده من سنة ١٩٢٥ بقرار المحكمة في جلسة ١٢/٤/٩٤١».

لماذا صُححوا تولدي بتكبير عمري سنتين؟ أذكر أنني أنهيت عام ١٩٤١ دراستي في «الكلية الشرعية في بيروت»، وعزمت على السفر الى القاهرة للالتحاق بكلية الآداب في الجامعة المصرية. ولكنني فوجئت بأن السفر الى الخارج، وكانت الحرب العالمية الثانية ما تزال قائمة، محظور على من كان عمره دون الثامنة عشرة... ما العمل إذن؟

قال قريب لي: «نقيم دعوى في المحكمة بأن خطأ قد وقع في تاريخ ولادتك، ونطلب تصحيح الخطأ...» قلت: «ولكن هل تقبل المحكمة؟»

أجاب قريبي: إذا تقدّم شاهدان، فشهدا بوقوع الخطأ... وسيكون الأمر يسيراً لأن المطلوب هو تكبير العمر... ولو كان المطلوب هو تصغير العمر لكان الأمر أصعب جداً! سألته: وأين الشاهدان؟

قال: أنا أحدهما... ولن يصعب علينا العثور على الآخر!

وهكذا كُبر عمري... بشاهدي زور! وما كنت بحاجة لأن أتساءل عن سرّ حماس قريبي لتأدية

يحمل فيه أبنائي أو أحفادي أو أحفاد أحفادي هوية لا تحمل إلا كلمة واحدة: عربي.

اسم أبي: شريف ادريس.

ويقال إن أصلنا من المغرب، ككثير من الأسر اللبنانية التي هاجرت منذ مئات السنين من المغرب واستوطنت البلاد العربية. ويُقال كذلك إن أجدادي ينتمون إلى الأدارسة الذين أقاموا دولة لهم في المغرب الأقصى في القرن الثامن، وبنوا مدينة فاس، ويرجعون بنسبهم البعيد إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

والحق أنني لم أهتم يوماً بما يُسمى شجرة العائلة، ولم أتساءل أكنت في أصلي من الشرفاء أم من الدهماء، لأنني نشأت على الإيمان بأن «الفتى من يقول هانذا، وليس هو من يقول كان أبي»، على ما علمونا منذ نعومة أظفارنا.

بيد أنني حين بلغني أن للأدارسة وقفاً في مدينة «فاس»، دفعني الفضول، وكنت مع زوجتي في زيارة للمغرب عام ١٩٨٤، للتوجه إلى «فاس»، علّني يصيبني من هذا الوقف رذاذ...

وتبين لي هناك أن الوقف في المقام الإدريسي ضئيل هزيل، يتنازعه الكثيرون، فأثرت أن أهرب... خشية أن أطلب بما لست أعلمه من ضرائب قديمة!

وأتمننا تجوالنا في دروب فاس الضيقة التي لا تدخلها السيارات. وفي طريق العودة، أدركتنا عربة نقل يجرها بغل في زقاق ضيق حُشرت فيه زوجتي، فأصيبت بخدوش في جانب عنقها وكفها، وسمعتها تتمتم، وهي تتوجع قائلة: ... أنت وأجدادك!

كان أبي، على ما يروي الأقرباء، من أغنياء التجار في منطقة المرفأ بالعاصمة. حيث كان يدير مع عمي تجارة «مال قبان». ولكنه كان يتجاوز الكرم والأريحية إلى الإسراف والتبذير. ويروون أنه دعا إلى عرسه الراقصة بديعة مصابني، وأنه أهدى عروسه عقداً من اللؤلؤ كان باهظ الثمن، كما أهدى إلى القريبات من فتيات الأسرة، بتلك المناسبة، عقوداً ذهبية، وظلّت الأفراح في البيت قائمة طوال أسبوع، والمائدة مبسطة بالطعام والحلوى لكل مهنيء من الزوار. ولعلّ هذه السعة في الإنفاق كانت على سبيل التعويض من أنه تزوج وهو في زهاء الأربعين من عمره بعروسه التي لم تكن تتجاوز الثالثة عشرة...

وأمي سهيلة غندور، هي من أسرة تُعدّ في أسر بيروت البورجوازية التي منها عائلات الداعوق وبيهم والشيخ وفتح الله وسواها، وقد هاجرت من المغرب في موجات متتالية، وتوزّعت بين ثغور المتوسط وبلدان الجزيرة العربية.

أمّا أمها، جدّتي أسماء غندور، فقد تأخّر زواجها من جدّي ابن عمّها مصطفى غندور الذي كانوا قد «قطعوا سرّها» عليه لدى مولدها. و«قَطَعَ سرّة» فلانة على فلان كناية عن رصدها لتكون زوجته في المستقبل باتفاق الأسترين. وقد جعلوا أسماء تنتظر حتى بلغ مصطفى الثانية والعشرين. ولم تكن هي تصغره إلا بأشهر قليلة. وكان من نتيجة هذا الانتظار أن اكتسبت أسماء نضجاً وخبرة، فطلبت لدى عقد الزواج أن يكون طلاقها «بيدها»، وربما كانت من أوائل الفتيات البيروتيات اللواتي طالبن بهذا؛ والواقع أنها لم تلبث طويلاً حتى استعملت هذا الحق، إذ اكتشفت بعد أشهر من مولد ابنتها، أمي سهيلة، أن زوجها كان على علاقة براقصة يهودية تعمل في أحد مراقص حيّ «الزيتونة» في بيروت... وهكذا حصلت جدّتي على الطلاق من جدّي، وبقيت أمي في كنفها. ثم تزوّجت أسماء عمي مصباح ادريس الذي سهّل زواج أخيه، أبي شريف، بابنتها سهيلة، بالرغم من الفارق الكبير في السن. أي أن الأخوين تزوّجا الأمّ والبنت. وهكذا يكون أخوالي أبناء عمي في الوقت نفسه... وقد كانت هذه أحجية أنسلّ أحياناً بطرحها على الناس: كيف يكون المرء خالاً وابن عم في وقت واحد؟

ألحقت جدّتي أمي بمدرسة «سان جوزيف» التي تدرس فيها قريباتها، وتُعنى عناية خاصة بتدريس اللغة الفرنسية. وقد كانت أمي مجتهدة في دراستها وذات نباهة، وتمكنت من التحدّث بالفرنسية في وقت قصير، وكانت مغرمة بالمطالعة، ولكن تزويجها، وهي في الثالثة عشرة من عمرها، حال دون أن تواصل تحصيلها، ولم تلبث طويلاً حتى أصبحت أمّاً.

اشترى أبي للسكن منزلاً كبيراً ذا طابقين في محلة «البيضة التحتا» المشرفة على «الخنق الغميق». وقد زرت مؤخراً هذا البيت الذي وُلدت فيه، والذي أصبح منذ حين «مدرسة الزهراء»، وهو يضم عشر حجرات جعلت صفوفاً للدرس، بالإضافة إلى «دارين» كبيرين وفناء واسع جعل ملعباً للأولاد. ولا تزال «المشربيات» قائمة على السلم الحجري الذي يوصل إلى الطابق الأعلى، كما لا تزال بعض كُوى في أعالي الجدران رُكّبت فيها زجاج ملوّن مؤطّر بعروق من البرونز. على أن سقف هذه الطبقة العليا كان قد انهار بعد إصابته بقذيفة من قذائف الحرب الأهلية، فأقيم بدلاً منه سقف خشبي يعلوه قمر يد أحمر.

في ذلك البيت، وُلدتُ على يدي «داية» تُدعى «أم سليم» كانت تولّد نساء الأحياء. ولكنّ أمي كانت تُعارض أن يُجنن الطفل الذكر عند مولده «حرام»... سيتألم كثيراً. ولا أستطيع أن أتحمّل رؤيته وهو يتوجّع». كانت تقول، وهي

تذكر ما عاناه أخي الأكبر. وعبثاً حاولت الأمهات من قريباتها إقناعها بتعجيل «التطهير»، «لأنَّ الولد حين يكبر، يقولون، يعصى، وغالباً ما يهرب من المطهر»... حتى بلغت الثالثة من عمري، فخطفتني «عاتكة» التي كان أبي وأمي قد زوّجها بابن أخت أبي على سبيل «الخطيفة»، إذ كان أهلها يعارضون زواجهما، فطهرتني مع ابنتها «عزة» الذي كنت أكبره ببضعة شهور. وحين أعادتني الى البيت مطهراً، وأنا أبكي، أخذت أُمّي تبكي معي... فكان على «عاتكة» ذلك اليوم أن تهدي بكاء ثلاثة أشخاص!

قالت أُمّي، بعد أن مسحت دموعها وابتسمت: «بي على مُقلِّك يا عاتكة!»

أجابت عاتكة: «واحدة بواحدة... خطفتوني لتفوق (زوجها) فخطفت «سهيل» للمطهر!»

وأخذتا تضحكان وتقهقهان... ويروون أني توقفت قليلاً عن البكاء لأنظر إليهما، غير فاهم من الأمر شيئاً... وحين دخلنا الى المطبخ لإعداد لوازم حفلة التهنئة «بالطهور»، عدت الى البكاء!

ترتبط صورة عاتكة في ذهني وأذهان إخوتي بطباخة ماهرة كانت تدعو العائلة الى اللذ طعام يُطبخ في بيروت. وكنا نسلل الى بيتها، على غير علم من أبونا، فتخرج لنا من «المراطين» كُتلاً من مُربّى القُرْع مُحشّوة باللوز والجوز، نأكلها على مهل ونحن نتلمّظ بها متلذّذين.

أما زوجها «أبو عزة» الذي كان أبي خاله، فقد كان مشهوراً بصنع «البوظة» بالحليب أو بالليمون أو بالفريز. وكنا غالباً ما نتحلّق حول آلة صنع البوظة نتفرّج عليه يُدير فيها بيد حديدية أسطوانة ملأى بالحليب المُسحّب يُراكم حولها قطع الثلج، ويسمح لنا، كلُّ بدوره، أن نحرك هذه اليد الحديدية حتى تكمل يدنا الرخصة. ولم نكن نحتاج أكثر من ساعة، حتى يجمد الحليب ويتحوّل الى أشهى بوظة يتحلّب لها الريق وتُتلج صدورنا الظمأى.

كان «أبو عزة» معلماً كبيراً في «سوق الخضار» يوصيه أبي على كميات هائلة من الفاكهة يُرسلها الى بيتنا بأكياس من الخيش، تُوضع في «غرفة المونة» التي لم نعرفها يوماً فارغة... وغالباً ما سمعت عبارة: «أبو وجيه... يجب بطنه» يتداولها الأقرباء وهم يتغامزون. وكان لأبي كرش أنفر منها لأنه لم يكن يتورّع عن تنفيسها بريح يُطلقه بين الفينة والفينة دون تحرج حيثما تقبل في المنزل... وسمعت أُمّي ذات يوم، بعد أن فرغنا من غداء تمجّشاً منه أبي، تقول بتقرّز «أعوذ بالله! ما هذا! من فوق ومن تحت!» فضحك أبي طويلاً، حتى أضحكنا جميعاً وعلى رأسنا أُمّي!

وأنا ثاني سبعة رُزقهم أبي وأمي.

يكبرني «وجيه»، بكّر العائلة، بزهاء عام ونصف. وقد قطع دراسته في نهاية المرحلة الابتدائية، ملتحقاً بمتجر خالي، لنفوره من الدرس أولاً، وحاجة أبي، بعد أن آل الى الفقر، الى من يعينه للقيام بأود الأسرة ثانياً. وأما أخي منير، الذي يليني، فإن عوز العائلة نفسه هو ما اضطره اضطراراً الى وقف دراسته، بالرغم من اجتهاده وحسن تحصيله، فالتحق بعمل في مهوى «الأوتوماتيك» الذي كان يملكه الخال نفسه. وأما أخي الأصغر، أنس، فقد وُلد بعد ثلاث بنات، وبذلت أُمّي كل جهدها لإجهاضه فأخفقت.

كانت وجيهة، كبرى البنات الثلاث، موضع اهتمامي لما كانت تتمتع به من ذكاء وطموح الى بلوغ مرتبة عليا من التحصيل. وحين أنهت دراستها الثانوية في كلية المقاصد الاسلامية للبنات، ووافقت جمعية المقاصد على إيفادها في بعثة للتخصص في التربية بالقاهرة، وقفت في وجه معارضة أبي لسفرها، وشجعتها على نزع الحجاب، وظللت أدمع جهدها الدراسي، حتى نالت دبلوم التربية وعلم نفس رياض الأطفال من جامعة ابراهيم باشا بالقاهرة. وحين عادت الى بيروت، تولّت تدريس مادة التربية في بيت الأطفال التابع لجمعية المقاصد الاسلامية، وتزوّجت المحامي شفيق الوزان، الذي أصبح، في الثمانينات، رئيساً للوزارة في لبنان.

وأما أختاي الأخيرتان، عائشة وُسْر، فقد تزوّجتا بتاجرين من تجّار بيروت، وأصيبت وُسْر، وهي في شرح الشباب، بنزيف في رأسها قضت منه نجها، فخلّفت في قلوب أفراد الأسرة نزيهاً من الحزن لا يرقأ...

كان أقرباء أبي من آل مبسوط وفايد والحلواني وكوش والسرودك ينزلون منازل متجاورة حول بيتنا الكبير، يتزاوون ويتضايفون ويتبادلون الودّ، ويعيشون في شبه «قبيلة»... وكان أبي، بشهادة الأقرباء، مُسرفاً مبذراً، أغراه على ذلك غناه في التجارة، وامتناع أُمّي عن معارضته، تجاوباً مع وضعها الاجتماعي المسور. وكان كثيراً ما يُولم للأقرباء، بمناسبة وبغير مناسبة. ويبدو أن أحد التجّار من زبائنه قد استغلّ نزعة الكرم لديه، فأقنعه بأن يكفله لدى تجّار آخرين، بمبلغ كبير من المال. وكان في ذلك خدعة ذهب ضحيتها أبي الطيّب القلب، إذ أعلن إفلاس ذلك التاجر بعد يومين، فأصيب أبي وعمّي، من جرّاء دفع الكفالة، بضربة قاسية في مالهما الذي أجهزت عليه صفقة فول استوردها في سفينة تجارية من مصر، إذ وصل الفول مسوّساً الى المرفأ، فألقي في البحر، وآل أبي وعمّي، كالتاجر الذي كفلاه، الى الإفلاس!

وأحسّت العائلة بأن وضعها الاقتصادي قد تغير بعد أن باع أبي منزل «البسطة التحتا» ونقلنا الى طابق أرضي استأجره في محلة «برج أبي حيدر».

وفي ذلك المنزل، أيقظتنا ذات صباح، طرقات عنيفة على الباب. وما كاد أبي يرى الطارق حتى سارع الى إغلاقه، فإذا بالرجل ينفجر بالشتائم والسباب، وينعت أبي بأبجح النعوت، مطالباً إياه برّد ماله، فأدرکنا أن أبي كان مديناً له، ولكنه عاجز عن الوفاء بدينه. وكنا ننظر الى أبي ممتقع الوجه، يرشح جبينه عرقاً، ولا ينس بكلمة.

ولعلّ هذا المشهد، الذي لم أنسه يوماً، كان السبب في نفوري الشديد من الدّين... والدائنين والمدينين، وحرصني طوال حياتي على ألا أكون مديناً لأحد.

والحق أني كنت، على ما أذكر، أشعر بشيء من الذلّ حين كنت أفق مع أخوي كلّ صباح، ونحن في طريقنا الى المدرسة، أمام باب تاجر صغير للحبوب، يُعطينا خمسة قروش، هي «خرجيتنا» اليومية، سداداً لِدّين لأبي لدى ذلك التاجر، منذ وقت طويل. كان ذلك أشبه بالاستعطاء و«الشحاذة»، وكنت أرفض أن أقوم بهذا العمل حين كان أخي يُحيله إليّ، بين يوم وآخر، فأذكره دائماً بأنه هو الأخ الأكبر، وأن أبانا قد عهد اليه وحده بهذه المهمة!

وازداد إحساسي بالذلّة حين فهمت أن أفساطنا المدرسية، نحن الثلاثة، كان يدفعها لصندوق كلية المقاصد الاسلامية التي ألحقنا بها في المرحلة الابتدائية، زوج خالة أمي الوجيه الثريّ أنيس الشيخ. ثم تحوّل ذلك الشعور الى ما يشبه الحقد على ذلك الثريّ، لأنه لم يكن يُرسل الى منزلنا سائقه، فيحملنا مع أولاده كل صباح بسيارته الفارهة السوداء «الناش» الى المدرسة.

قال لي أبي، حين طالعتَه بذلك الاحتجاج: «اسكت! شحاذ ومُشارط!»

ويبدو أني لم أفهم آنذاك قصده. ومع ذلك، فقد سألتَه بلهجة لا تخلو من تعجّب:

- ولماذا أصبحنا شحاذين؟

صاح أبي بلهجة غاضبة:

- استغفر الله! إيّاك والكفر، يا ولد!

ولم أجب بشيء، بل أخذني بعض الخوف من أن أكون حقاً قد كفرت...

قضينا بضع سنوات في «برج أبي حيدر»، ثم انتقل بنا أبي الى منزل آخر في «البسطة التحتا» ليكون قريباً من المسجد الذي عُين فيه ليؤمّ المصلّين فجر كل يوم.

وكان أبي يرتدي ثياباً تجمع بين الديني والمدنيّ: فهي

تتألّف من بنطال كالبناطيل المدنيّة، وإن كان أوسع، وسترة كجيب المشايخ، وإن كانت أقصر. وكانت عمامته تختلف عن عمامة المشايخ الأسطوانية البيضاء، بأنها رقيقة سمراء، تسمّى «شرخانة»، تُلفّ على طربوش أحمر، وهي مطرّزة بخطوط مذهّبة.

لم يكن أبي رجل دين، بل رجل تدّين، أخذ من بعض علوم الدين بأطراف. وكان يحفظ القرآن ويروي الحديث، ويدعو أصدقاء له وأقارب الى لقاءات دينية وحفلات ذكّر يحضرها أحياناً بعض «المولوية» الدوّارين. وكنت أتسلّل الى غرفة الاستقبال فأجلس على مقربة منه أستمع الى المدعوين يقرأون سورة الكهف أو سورة يس، فيشجعني مرتباً على كفي، ويصحبني لتأدية صلاة الجمعة والاستماع الى خطبتها. ولكني كنت أحبّ، أكثر ما أحبّ، مشارته على صلاة الفجر في جامع «البسطة التحتا». وقد طلبت منه يوماً أن يوقظني فجر اليوم التالي لأصحبه الى الجامع، فسرّه ذلك، ورافقتُه سعيداً بعد أن توضّأت، وصلّيت مع المصلّين الذين أمّهم، ثم عدت معه الى البيت، مسحوراً بذلك الجوّ الدينيّ وبصوت أبي الحنرن وهو يتلو آيات من القرآن في ركعتي صلاة الفجر...

وفوجيء أبي يوماً حين أستمع إليّ أتلو القرآن، فقال لي مبتهجاً:

- لم أكن أعرف أن صوتك جميل!

قالت له أمي بلهجة افتخار:

- إنك لم تسمعه وهو يغني لعبد الوهاب أو أم كلثوم!

كانت أمي تعشق صوت أم كلثوم، وتحرص على الاستماع إلى حفلتها الشهرية من إذاعة القاهرة. وأذكر أننا كنا نقصد، سيراً على الأقدام من منزلنا في برج أبي حيدر، بيت «أبو عزة» في «البسطة التحتا»، لنسهر على صوت أم كلثوم عبر جهاز الراديو الذي كان قريبتنا من أوائل الذين اقتنوه في بيروت... كان الخميس الأول من كل شهر يوماً عزيزاً علينا ننتظر حلوله بفارغ الصبر، لنحبي ليلته مع أم كلثوم، غناءً ساحراً يهزّ أجسامنا ونفوسنا، نتهايل منه طرباً ونشوة، ونتابع آهات المستمعين المصريين وصياحهم وتصفيقهم، وتردّد أمي: «آه يا ثومة! آه يا ثومة!» ويردّد أبي: «سبحان من وهب هذه الحنجرة!».

وسهرنا، ذات ليلة من ليالي الربيع، على سطح منزل «أبو عزة» في ضوء القمر، نستمع إلى أم كلثوم تصدح بأغنيّتها التي حفظتها «رقّ الحبيب وواعديني يوم...» كنا نجلس فوق «طرايح» بسطت على السطح. وقد ألجاناً ضيق المكان وكثرة الساهرين إلى ما يشبه التلاصق في المجلس، فألّفتني إلى جوار فتاة من قريباتي أحسست بذراعها العارية تلامس

أحسست بقوة تدفني من ظهري وتحرك قدمي باتجاه السلم.

وحين بلغت أسفل الدرج، توجهت إلى «الدار»، فوجدتها واقفة في زاوية، عند باب مفتوح، كأنها كانت تنتظري. وقد مشيت إليها، يأخذي الخوف من أن يكون ثمة أحد. ولكنني حين سمعتها تقول: «كلهم فوق»، اقتربت منها فأمسكت بيدها، فإذا هي تدني وجهها من وجهي، وتجريني إلى داخل الغرفة.

ضممتها، فأحسست بندها على صدري. وحين انسلت يدي إليه وهصرته، سمعتها تتم بصوت واهن، من غير أن تتراجع: «عيب!»

لم أجب بكلمة، وظلت يدي تشد عليه حتى قالت: «إنك توجعني!» ونظرت إليها، فإذا عيناها شبه مغمضتين ووجهها ممتقع.

كنت أهم بالانحناء لأقبل ندها، وهو في يدي كالعصفور، حين سمعنا وقع قدم تهبط الدرج.

تركتها مرتجفاً، واتجهت مسرعاً نحو السلم دون أن ألتفت إليها، فالتقيت على الدرج «عاتكة» هابطة إلى «الدار» فقالت لي: «أسرع لتأخذ حصتك من البوظة قبل أن تنتهي!».

وظللت أرتعش، حتى رأيت «أمية» تصعد إلى السطح، وكان وجهها شديد الاحمرار. ولم أتفأس الصعداء إلا حين رأيتها تتبسم لي.

تلك الليلة، لم أجد لذة في أكل «البوظة»، ولم أطرب لصوت أم كلثوم.

كان ذلك، على ما أذكر الآن، أول لقاء لي بالجنس الآخر.

ذراعي فتبعث في جسمي رعشة لذة... وحين زدت التصاقاً بها لم تتعد ولم تتراجع، بل حسبتني ألمح على شفيتها طيف ابتسامة... وتنبهت فجأة إلى أن ندها بدأ يبرز على صدرها، فعجبت لذلك إذ كنت أعلم أنها في مثل سني وأنا لم أبلغ العاشرة بعد!

قضيت تلك السهرة مع أهلي، أستمع إلى «آهات» أم كلثوم، ترافقها أنفاسي المتقطعة وورعشات خفيفة في جسمي ورجفة في يدي التي تتحرك إلى ضم ذلك النهد الطفل على صدر «أمية...»، ولكن يحول دون أن تسعني إليه ضوء قمر ساطع ظننت، حين حدقت فيه، أنه يتسم ساخراً مني... حين عدت مع أهلي إلى المنزل قرابة الفجر، كنت أتساءل في ضيق: أليس بعيداً، أطول مما ينبغي، الخميس الأول من الشهر القادم؟ وبعد أرق طويل، عانيت فيه من جسمي، نمت من إرهاق وأنا أحسُّ بأني أزداد شغفاً... بصوت أم كلثوم!

ليلة الخميس الأول من الشهر التالي، قصدنا منزل «أبو عزة» لإحياء السهرة مع «مطربة الشرق». كان الجو حاراً، وكان الزوار قد صعدوا جميعاً إلى السطح فاحتلوا ساحته وأركانه، مقتعدين الطراريح، و«أبو عزة» جالس في الوسط وحوله الأولاد يتفرجون عليه وهو يدير آلة «البوظة». وأخذتني الحيرة أين أجلس، فالحضور كثيرون متلاصقون، ولم تترك لي «أمية» مكاناً بجوارها... وقد رميتها بنظرة عتاب، فردت عليّ ببسمة! وتدبر إخوتي أمرهم في الجلوس، وبقيت أدير عيني أبحث عن مكان، حتى رأيتها... «أمية»، تنهض متجهة إلى السلم. وقبل أن تهبط الدرج، التفتت إليّ وغمزني بعينها... يا إلهي! كيف أوتيت تلك الجرأة!

عن دار الآداب

صدر حديثاً

سهيل ادريس في قصصه ومواقفه

بتلم الدكتور جورج أزوط

أشمل دراسة وأكملها عن مؤلف «الحي اللاتيني» و«الخندق الغميق» وسواهما من الروايات والأقاصيص